فصـــل
في التحذير من ترك الجهاد رغبة عنه من غير عذر، والحث على تلبية داعي اللَّه إذا دعىٰ للنفير العام

«يا خيل الله اركبي» .... يريد النبي ﷺ بقوله هذا: يا فرسان الإسلام وحماة العقيدة، هيا أسرعوا وامتطوا صهوات خيولكم المسخرة لنصرة دين الله تعالى، والمُعدَّةُ للقتال.. وهَلُمَّ أيها الرجال إلى لقاء عدو الله وعدوكم.. هَلُمَّ إلى جنَّةٍ ملؤها الرضى والسعادة والسرور.. جنة عرضها السمٰوات والأرض.. هَلُمَّ إلى ساحات الشرف والفداء.. هَلُمَّ إلى عزِّ الإسلام ومجده.. هَلُمَّ إلى النصر والسؤدد.. هَلُمَّ يا فرسان الله إلى الجهاد في سبيله وإعلاءَ كلمته.. هَلُمَّ إلى دحر الكفر وأهله.

هَلُمَّ إلى الدفاع عن حوزة الدين، والرَّد عن أعراض المسلمين، وحماية الشيوخ والنساء والأطفال والمقدسات.. هَلُمَّ أبطال الإسلام لكسر شوكة الكافرين.

هَلُمَّ يا رجال الله لتحموا بصدُوركم أوطان المسلمين.. هَلُمَّ إلى تلبية نداء العزيز الجبَّار حيث يقول لكم: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [البقرة: 191].

هَلُمَّ لتكونوا شهداء على الناسِ.. وشهداء لله.. هَلُمَّ لتكونَ كلمة اللهِ هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى... هَـلُمَّ إلى عزِّ الدَّنيا ومجد الآخرة.

قال الله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة: 41].

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: 24].

وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا

قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة: 38، 39].

- **وروى** أبو داود (3462) والبيهقي (5/ 316) وأبو يعلى (5659) وغيرهم، بإسناد لا يخلو من مقال ـ واللفظ لأبي داود من حديث عبد الله بن عمر ﷺ، قال: سَمِعْتُ رسُولَ اللهِ ﷺ يقول: «**إِذَا تَبَايَعْتُم بِالعِينَةِ، وَأَخَذْتُم أَذْنَابَ البَقَرِ، وَرَضِيتُم بالزَّرْعِ، وتَرَكْتُمُ الجِهَادَ، سَلَطَ اللهُ عَلَيْكُم ذُلًّا لا يَنْزَعُهُ حتَّى ترجعوا إلى دِينكُم**».

- **ورواه** الإمام أحمد (4825)، بإسناده من طريق عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إذا** ـ يعني ضَنَّ الناسُ بالدينارِ والدِّرهم ـ **تبايعوا بالعِيْن، واتَّبعوا أذنابَ البَقَرِ، وتركوا الجهادَ في سَبِيلِ الله، أنزل الله بهم بلاءً، فلم يرفعْه عنهم حتى يُراجِعُوا دينَهم**».

فائدة في قوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: 41].

- **روى** أبو يعلى (3413) والحاكم (2549) والطبراني في «الكبير» (4683) وغيرهم، بإسناد صحيح، من حديث أنس بن مالك ﷺ أن أبا طلحة ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ قال: أمرنا الله واستنفرنا شيوخاً وشباناً، جهزوني، فقال بنوه: يرحمك الله قد غزوت على عهد رسول الله ﷺ، وأبي بكر وعمر فنحن نغزو عنك فغزا البحر فمات، فطلبوا جزيرة يدفِنُونَه، فلم يقدروا عليها، إلا بعد سبعة أيام، وما تغير.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [التوبة: 38].

قال الإمام القرطبي رحمه الله في «تفسيره» (4/ 71/ 74): قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ﴾ «ما» حرف استفهام معناه التقرير والتوبيخ. التقدير: أي شيء يمنعكم عن كذا؟ قال: ولا خلاف أن هذه الآية نزلت عتاباً على تخلُّفٍ من تخلَّف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام. والنَّفْر: هو التنقل بسرعة من مكان لأمر يحدث.

وقوله تعالى: ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ قال المفسرون: معناه اثاقلتم إلى نعيم الأرض، أو إلى الإقامة بالأرض. وهو توبيخ على ترك الجهاد وعتابٌ على التقاعد عن المبادرة إلى الخروج، وهو نحو من أخلد إلى الأرض. وأصله تثاقلتم، أدغمت التاء في الثاء

لقربها منها، واحتاجت إلى ألف الوصل لتصل إلى النطق بالساكن. وكانت تبوك ـ ودعا الناس إليها ـ في حرارة القَيْظ وطيب الثمار وبرد الظلال ـ كما جاء في الحديث الصحيح على ما يأتي ـ فاستولى على الناس الكسل، فتقاعدوا وتثاقلوا؛ فوبّخهم الله بقوله هذا وعاب عليهم الإيثار للدنيا على الآخرة.

ومعنى: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أي بدلاً؛ التقدير: أرضيتم بنعيم الدنيا بدلاً من نعيم الآخرة. فـ (مِن) تتضمن معنى البدل.

عاتبهم الله على إيثار الراحة في الدنيا على الراحة في الآخرة؛ إذ لا تنال راحة الآخرة إلا بنصَب الدنيا. قال ﷺ لعائشة وقد طافت راكبة: «**أجْرُك على قدر نَصَبِك**». أخرجه البخاري (١٧٨٧).

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة: 39].

قال القرطبي: في مسألة واحدة: وهو أن قوله تعالى: ﴿تَنفِرُوا﴾ شرط؛ فلذلك حذفت منه النون. والجواب ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾، ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد مؤكد في ترك النفير. قال ابن العربيّ: ومن محققات الأصول أن الأمر إذا ورد فليس في وروده أكثر من اقتضاء الفعل. فأما العقاب عند الترك فلا يؤخذ من نفس الأمر ولا يقتضيه الاقتضاء، وإنما يكون العقاب بالخبر عنه؛ كقوله: إن لم تفعل كذا عذبتك بكذا؛ كما ورد في هذه الآية. فوجب بمقتضاها النفير للجهاد والخروج إلى الكفار لمقاتلتهم على أن تكون كلمة الله هي العليا.

روى أبو داود عن ابن عباس قال: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وَ ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ إلى قوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 121] نسختها الآية التي تليها: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً﴾ [التوبة: 122]. وهو قول الضحّاك والحسن وعِكرمَة. ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾ قال ابن عباس: هو حبس المطر عنهم.

قال ابن العربيّ: فإن صحّ ذلك عنه فهو أعلم من أين قاله، وإلا فالعذاب الأليم هو في الدنيا باستيلاء العدوّ وبالنار في الآخرة.

قال القرطبي: قول ابن عباس خرّجه الإمام أبو داود في سننه عن ابن نُفيع قال: سألت ابن عباس عن هذه الآية: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال: فأمسك عنهم المطر فكان عذابهم.

وذكره الإمام أبو محمد بن عطية مرفوعاً عن ابن عباس قال: استنفر رسول الله ﷺ قبيلة من القبائل فقعدت، فأمسك الله عنهم المطر وعذبها به. و ﴿أَلِيمًا﴾ بمعنى مؤلم؛ أي موجع.

﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ توعّدٌ بأن يبدّل لرسله قوماً لا يقعدون عند استنفاره إياهم. قيل: أبناء فارس. وقيل: أهل اليمن. ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ عطف. والهاء قيل لله تعالى وقيل للنبيّ ﷺ.

والتثاقل عن الجهاد مع إظهار الكراهة حرام على كل أحد. فأما من غير كراهة فمَن عيّنه النبيّ ﷺ حَرُم عليه التثاقل وإن أمن منهما فالفرض فرض كفاية؛ ذكره القشيريّ.

وقد قيل: إن المراد بهذه الآية وجوب النفير عند الحاجة وظهورِ الكفرة واشتداد شوكتهم. وظاهر الآية يدل على أن ذلك على وجه الاستدعاء فعلى هذا لا يتّجه الحمل على وقت ظهور المشركين؛ فإن وجوب ذلك لا يختص بالاستدعاء، لأنه متعيّن.

وإذا ثبت ذلك فالاستدعاء والاستنفار يبعد أن يكون موجباً شيئاً لم يجب من قبل؛ إلا أن الإمام إذا عيّن قوماً وندبهم إلى الجهاد لم يكن لهم أن يتثاقلوا عند التعيين، ويصير بتعيينه فرضاً على من عيّنه لا لمكان الجهاد ولكن لطاعة الإمام. والله أعلم.

وأما قوله ﷺ: «إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر..» الحديث قال ابن النحّاس: العينة: بكسر العين المهملة وسكون الياء المثناة تحت بعدهما نون وهاء تأنيث.

قال البيهقي في «الشعب» (2 ـ 29): التبايع بالعينة، أن يقول الرجل: اشترِ كذا وكذا وأنا أشتريه منك بربح كذا وكذا، انتهى.

وقال الهروي[1] في الغريبين: العينة أن يبيع من رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل مسمى ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذي باعها به وهذا مكروه.

---

(1) هو أحمد بن محمد بن عبد الرحمٰن أبو عبيد الهروي، المؤدب، صاحب غريبي القرآن والحديث مات سنة إحدى وأربعمائة. «معجم الأدباء لياقوت» (4/ 260 ـ 261).

فإن اشترى بحضرة طالب العينة سلعة من آخر بثمن معلوم وقبضها ثم باعها من طالب العينة بثمن أكثر مما اشتراه إلى أجل مسمى ثم باعها المشتري من البائع الأول بالنقد بأقل أيضاً من الثمن فهذه أيضاً عينة وهي أهون من الأولى هو جائز عند بعضهم.

وسميت عينة لحصول النقد لصاحب العينة وذلك أن العين هو المال الحاضر فالمشتري إنما يشتري ليبيعها بعين حاضر يصل إليه من فوره، انتهى.

وقال أقضى القضاة الماوردي في الحاوي: سميت عينة لأنها أخذ عين بربح العين: الدراهم والدنانير.

قال ابن النحّاس: ومعنى الحديث: أن الناس إذا تركوا الجهاد وأقبلوا على الزرع ونحوه تسلط عليهم العدو لعدم تأهبهم له واستعدادهم لنزوله ورضاهم بما هم فيه من الأسباب فأولاهم ذلاً وهواناً لا يتخلصون منه حتى يرجعوا إلى ما هو واجب عليهم من جهاد الكفار والإغلاظ عليهم وإقامة الدين ونصرة الإسلام وأهله وإعلاء كلمة الله وإذلال الكفر وأهله.

ودلَّ قوله ﷺ: «**حتى ترجعوا إلى دينكم**» على أن ترك الجهاد والإعراض عنه والسكون إلى الدنيا خروج عن الدين ومفارقة له وكفى به ذنباً وإثماً مبيناً. «المشارع» (١/ ١٠٦ ـ ١٠٧).

وقوله ﷺ: «وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذُلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم» قال المناوي رحمه الله: أي: حتى يرجعوا عن ارتكاب هذه الخصال المذمومة، وفي جعلها إياها من غير الدين وأن مرتكبها تارك للدين مزيد زجر وتهويل وتقريع لفاعله، وهذا من أقوى أدلة من حرم بيع العينة خلافاً لما عليه الشافعية من قولهم بالكراهة دون التحريم والبطلان.

قال ابن النحّاس: فإن قلْت: نرى الناس قد أعرضوا عن الجهاد! والأغنياءُ فيهم كثير؟

فالجواب: أن الغني هو كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري (6446)، وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ قال: «**ليس الغنى عن كثرة العَرَضِ، ولكن الغنى غنى النفس**» فالغنى: غنى القلب والفقر فقر القلب والذي نشاهده من الناس لما أعرضوا عن الجهاد والغنائم وأقبلوا على الاكتساب من الجهات المختلفة من مباح وغيره سلط الله عليهم فَقْرَ قلب وشدّةَ حرص وغلبة شح، فمَنَعُوا كثيراً من الحقوق

الواجبة وتناولوا كثيراً من الحرام كالمكوس[1] نحوها وصار القليل من الدنيا عندهم خطيراً جليلاً وأذلهم الحرص والطمع فقلَّ أن تجد منهم أحداً إلا وقد استولت عليه الذلة لمن يرى أن رزقه يأتي من جهته واستعبده له الطمع والخوف من فواته.

ولو كان غنياً لكان حراً فهو في الحقيقة وإن كان ذا ثروة فهو فقير، وإن كان في ظاهره عزيزاً فالذل قد استولى على قلبه وسكن فيه وليس عند من يرتزق من سيفه شيء من ذلك لأن رزقه من الغنيمة مأخوذ بالسيف ليس لأحد غير الله فيه منّة.

ولما كانت الغنيمة حلالاً محضاً ليس فيها شبهة كانت سبباً في تنوير القلب وطرد ظلمات الشح والبخل والحرص من ساحته، فصاحب الغنيمة وإن كان فقير اليد فهو غني النفس، وإن كان دِثَارُهُ الظاهرُ الذُّلَ والمسكنة فشعاره الباطن العز والعظمة كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: 54].

وأما من اكتسب من الشُّبَهِ وأَذَلَّهُ الطمع بالخلق فهو وإن كان عزيزاً في الظاهر فقلبه بأنواع الذل عامر، وإن كان في الظاهر غنياً بما جمع، فهو في الباطن فقير بالحرص والطمع وتأبى المكاسب الدنية، إلا أن تورث هذه الأخلاق الردية، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: 213] قال صاحب شفاء الصدور: وفي حديث علي ﷺ أنه قال: «الجهاد في الله باب من أبواب الجنة ومن ترك الجهاد في سبيل الله ألبسه الله الذلة وشمله البلاء ودُيّث بالصغار وسيم الخسف ومنع النَّصَفَ» يعني الانتصاف.

قوله: «ديث» بضم الدال المهملة وتشديد الياء كسرها وآخره ثاء مثلثة، معناه ذلل ومنه طريق مديث أي مذلل.

كلمات تُكتب بماء الذهب. لكل من رغب عن الجهاد، أو تقاعس عنه ــ للشيخ ابن النحّاس ــ رحمه الله تعالى:

قال: اعلم أيها الراغب عما افترض عليه من الجهاد، الناكب عن سنن التوفيق والسداد، إنك قد تعرضت للطرد والإبعاد، وحرمت ـ والله ـ الإسعاد بنيل المراد، ليت شعري هل سبب إحجامك عن القتال، واقتحامك معارك الأبطال وبخلك في سبيل الله بالنفس والمال، إلا طول أمل، أو خوف هجوم أجل.

أو فراق محبوب من أهل ومال، أو ولد وخدم وعيال، أو أخ لك شقيق، أو قريب

(1) المكوس: هي الضرائب تُدفع بغير حق.

عليك شفيق، أو ولي كريم أو صديق حميم، أو ازدياد من صالح الأعمال، أو حب زوجة ذات حسن وجمال، أو جاه منيع، أو منصب رفيع، أو قصر مشيد، أو ظل مديد، أو ملبس بهي، أو مأكل هني؟!!.

ليس غير هذا يقعدك عن الجهاد، ولا سواه يبعدك عن رب العباد، وتالله ما هذا منك أيها الأخ بجميل، ألا تسمع قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: 38].

إصغ لما أملي عليك من الحجج القاطعة، واستمع ما ألقي عليك من البراهين الساطعة، لتعلم أنه ما يقعدك عن الجهاد سوى الحرمان، وليس لتأخرك سبب إلا النفس والشيطان، أما سكونك إلى طول الأمل، وخوف هجوم الأجل، والاحتراز من الموت الذي لا بد من نزوله، والإشفاق من الطريق الذي لا بد من سلوك سبيله، فوالله إن الإقدام لا ينقص عمر المقدمين، كما لا يزيد الإحجام عمر المستأخرين: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: 34].

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [المنافقون: 11].

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [العنكبوت: 57].

وإن للموت لسكرات أيها المفتون، وإنَّ هول المطلع شديد ولكن لا تشعرون، وإنَّ للقبر عذاباً لا ينجو منه إلا الصالحون وإن فيه لسؤال الملكين الفاتنين: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ﴾ [إبراهيم: 27].

ثم بعد ذلك الخطر العظيم إما سعيداً فإلى النعيم المقيم، وإما شقياً فإلى عذاب الجحيم، والشهيد أمن من جميع ذلك، لا يخشى شيئاً من هذه المهالك.

ـ وقد قال رسول الله ﷺ: «**لا يجد الشهيد من ألم القتل إلا كمسِّ القرصة**»[1].

---

(1) الحديث بتمامه رواه أحمد (7953) والترمذي (1668) والدارمي (2408) وغيرهم بإسناد صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «ما يجد الشهيدُ من مسِّ القتل، إلَّا كما يجدُ أحدكم مسَّ القرصة» لفظ أحمد.

فما يقعدك أيها الأخ عن انتهاز هذه الفرصة، ثم تجار في القبر من العذاب، وتفوز عند الله بحسن المآب، وتأمن من فتنة السؤال، وما بعد ذلك من الشدائد والأهوال، فالشهداء أحياء عند ربهم يرزقون لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فرحين بما آتاهم الله من فضله مستبشرين، أرواحهم في جوف طير خضر تسرح في عليين. فكم بين هذا القتل الكريم، وبين الموت الأليم.

وإن قلت: يعوقني عن الجهاد أهلي ومالي، وأطفالي، وعيالي، فقد قال الله تعالى قولاً بيّناً لا يخفى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سبأ: 37]، وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: 14].

وقال تعالى: ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: 20].

ـ وقال ﷺ: «**موضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها، وغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها، وخمار جارية من أهل الجنة خير من الدنيا وما فيها**»[1].

فكيف يصدك عن هذا الملك العظيم أهل عن قليل يكونون في الأموات، تمزقهم أيدي الشتات، وتفرقهم نوازل الآفات، مع ما يصدر منهم من النكد والعداوات، والأخلاق السيئات، والحقد على ما عرضت من حظوظهم منك للفوات، وهجرانهم إياك عند قلة المال، وتحولهم عن ودِّك عند تغيِّر الأحوال، وأعظم من ذلك فرارهم منك في المآل ومحاسبتهم إياك على مثاقيل الذر في موقف السؤال، حتى يود كل واحد منهم لو نجا، وحمَّلك ما عليه من الذنوب والأثقال.

أم كيف يصدك ما هو في معرض الذهاب والزوال، ينفر عنك عند فقده الأخلاء وتتفرق العيال، ويهجرك كل صديق كان يكثر لك الوصال، ثم يوم القيامة تسأل عنه من

(1) الحديث بتمامه رواه البخاري (2796) وغيره بلفظ قريب من حديث أنس رضي الله عنه، وسيأتي إن شاء الله تعالى.

أين اكتسبت، وفيم أنفقت؟ ويا له من سؤال، في يوم تشيب فيه الأطفال، وتعظم فيه الأهوال وتكثر فيه الزحام ويشتد الخصام وتذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها من هول ذلك المقام.

ويعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام ويحاسب فيه الأغنياء على النقير والقطمير، والخطير والحقير، والناقص والتمام، ويسبق الفقراء الأغنياء إلى الجنة بخمس مائة عام[1]، فيأكلون ويشربون ويتنعمون في دار السلام، وأنت أيها الغني محبوس عنهم بسبب مالك، تخشى أن يؤمر بك إلى مالك.

أفتحزن على فراق ما إن قلَّ أكثر همك وعنّاك، أو كثر فأغناك وأطغاك وإن مت وتركته وراءك أرداك، وبين يديك موقف الحساب عليه وما أدراك، وهب أن لك الدنيا بحذافيرها، أليس إلى الفنا مصيرها، ولا بد من فراقك لها، وإن ركنت إلى غرورها.

وإن تذكرت ولدك الكريم وحنوت عليه حنو الأب الشفيق الرحيم، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن: 15].

وتالله لله أرحم بالولد من أبيه وأمه، وأخيه وعمه، وكيف لا وهو قد رباه قبلهم بثدي رحمته في ظلمات الأحشاء، وقلبه بيد لطفه ورأفته في أرحام الأمهات وأصلاب الآباء.

فأين كانت شفقتك عليه إذ ذاك، وحنوك وبعدك عنه ودنوك، وكيف يقعدك عن دار النعيم، وجوار الرب الكريم، ولد إن كان صغيراً فأنت به مهموم، أو كبيراً فأنت به مغموم، أو صحيحاً فأنت عليه خائف، أو سقيماً فقلبك لضعفه واجف[2]، إن أدبته غضب وشرد، أو نصحته حرد[3] وحقد، مع ما تتوقعه من العقوق المعتاد، من كثير من الأولاد.

إن أَقْدَمَتَ جبَّنكَ، وإن سَمَحْتَ بخَّلكَ، وإن زَهِدْتَ رغَّبك، عظمت به الفتنة، وأنت تعدها مِنَّة، وعمَّ به البلاء، وأنت تراه من النعماء.

---

(1) وذلك كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد (7946) والترمذي (2353) وغيرهما، واللفظ للترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم. وهو خمسمائة عام».

(2) واجف: أي خائف.

(3) حَرَدَ ـ بالتحريك ـ أي غَضِبَ.

تود سروره بهمك، وفرحه بحزنك، وربحه بخسرانك، وزيادة درهمه ودیناره بخفة ميزانك، تتكلف من أجله ما لا تطيق، وتدخل بسببه في كل مضيق، أَلْقِهِ يا هذا عن بالك إلى من خلقك وخلقه وتوكل في رزقه بعدك على الذي رزقك ورزقه، أسلمت إلى الله تدبيره في الملك والملكوت، لا تسلم إليه تدبير ولدك بعدما تموت، وهل إليك من تدبيره قليل أو كثير: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: 18].

والله لا تملك له ولا لنفسك نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً لا حياةً ولا نشوراً، ولا تستطيع أن تزيد في عمره يسيراً، ولا في رزقه نقيراً، وقد تفترسك المنية بغتة، فتمسي في قبرك صريعاً وبعملك أسيراً، ويصبح ولدك العزيز بعدك يتيماً، ويقسم مالك وَارِثُكَ عدواً كان أو رحيماً، ويفترق عيالك ظاعناً ومقيماً.

وتقول يا ليتني كنت مع الشهداء فأفوز فوزاً عظيماً، فيقال لك: هيهات هيهات، فات ما فات، وعظمت الحسرات، وخلوت بما قدمت من حسنات أو سيئات، ألا واسمع قول الله العزيز الغفور، محذراً لك ما أنت فيه من الغرور: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان: 33] هذا وإن كان ولدك من السعداء، فستجمع بينك وبين الجنان، وإن كان من الأشقياء، فليكن من الآن، لا يجتمع أهل الجنة مع أهل النار، ولا الأخيار مع الأشرار، ولعل الله يرزقك الشهادة فتشفع فيه، وتكون بفراقك له ساعياً في أن تنجيه، احرص على ما ينجيك من العذاب، واجهد فيه، فغداً: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: 34 ـ 37].

﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: 213].

وإن قلت: يشق عليَّ فراق الأخ والقريب، والصديق والحبيب، فكأنك بالقيامة وقد قدمت على الخلق أجمعين: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: 67]، فإن كانت الصداقة لله، فستجمع بينكما عليون، في نعيم أنتم فيه خالدون، وإن كانت الصحبة لغير الله، فالفراق الفراق، قبل أن يحشر الرفاق مع الرفاق، لأن المرء في الآخرة مع محبوبه، لمشاركته إياه في مطلوبه، فإن كان من الأتقياء نفعه أخاه، وإن كان من الأشقياء، ضره وأرداه، مع ما يتوقع في هذه الدار من

الأقرباء والأصدقاء من الجفاء، والصدّ وقلة الوفاء، وكثرة الكدر وعدم الصفاء، وتغيّرهم لديك، وتلونهم عليك، وإساءتهم إليك، وهجرهم إياك، عند فوات الأغراض، وما تَجُنُّه قلوبهم من العلل والأمراض، إن وقعت في شدة تخلُّوا عنك، أو واقعت زلة تبرؤوا منك، إخوان السرّاء وأعداء الضرّاء، صداقتهم مقرونة بالغنا، وصحبتهم مشحونة بالعناء إن قلَّ مالُك ملُّوك، وإن حالَ حالُك، فما أخوك أخوك، وإن شككت في شيء من هذا البيان، فسيظهر لك يقيناً عند الامتحان، وإن ظفرت يدك منهم، بأخ من إخوان الصفا! وأين ذاك، أو خِل من خِلّان الوفا، وما أُراك، فأنْتُما غداً كما قال أصدق القائلين: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر: 47].

ولا يقعدك يا هذا عن الجهاد حبيب أو قريب، فربما افترقتما قبل المغيب، ففاتك الثواب العظيم، وبان عنك الصديق الحميم، حرمت ما ترومه من الدرجات، وندمت فلم يغنك الندم على ما فات.

ـ وفي الحديث: إن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ: «يا محمد إنَّ الله يقول لك: عش ما شئت فإنك ميت وأحبب من شئت فإنك مفارقه واعمل ما شئت فإنك مجزي به».

فانظر ما اشتملت عليه هذه الكلمات اليسيرة، من ذكر الموت وفراق الأحبة، والجزاء على الأعمال أبعد هذا الإنذار إنذار ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: 13].

وإن قلت: يقعدني منصبي وجاهي الرفيع، وعزي وحجابي المنيع، فليت شعري كم فارق منصبك، محباً له إلى أن وصل إليك، وكم زال ظله من مُغْبِط نفسُه به إلى أن ظلل عليك، وسيبين عنك مما عنهم بان، وكأنك بذلك وقد كان، فإذا أنت لفراقه ثكلان، وقلبك مغمور بالحسد، وصدرك معمور بالأحزان، فلم يدم لك ما أنت فيه من المنصب والجاه، ولم تفز بما أنت طالبه من أسباب النجاة، وإن لِآخِرَ من يخرج من النار، ويدخل بعد الداخلين، مثلَ ملك أعظم من ملوك الدنيا، وعشرة أمثاله معه أجمعين.

فما ظنك بمن يكون مع السابقين الأولين، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، مع ما لا يخفى عليك مما في المنصب، من النصب والتعب وشر العاقبة وسوء المنقلب، وما تكسب به من كثرة الأعداء والحساد، وما اشتملت عليه بواطنهم

من الضغائن والأحقاد، وشماتتهم بك عند زواله، وتلهفك حزناً على ما فات من إقباله، وزوال أكثر حشمك وخدمك، وإعراض من كان يسر بتقبيل قدمك.

وإن قلت: يشق عليَّ فراق قصري وظله، وبنائه المشيد وعلو محله، وحشمي فيه وخدمي، وسروري ونعمي، فليت شعري هل هو إلا بيت من طين وحجر وتراب، ومدر وحديد وخشب، وجريد وقصب، إن لم يكنس كثرت فيه القمامة، وإن لم يسرج فما أشدَّ ظلامَه، وإن لم يتعاهد بالبناء فما أسرع انهدامه، وإن تعاهدته فمآله إلى الخراب، وعن قليل يصير كالتراب، يتفرق عنه السكان، وتنتقل عنه القُطَّان، ويعفو أثره ويندَرِسُ خبره، ويُمحىٰ رسمه، ويُنسى اسمه.

استبدل أيها المغرور، قصرك مع سرعة فنائه، بدار باقية قصورها عالية. وأنوارها زاهية، وأنهارها جارية، وقطوفها دانية، وأفراحها متوالية.

ـ إن سألت عن بنائها، فَلَبِنَةُ فضة، ولَبِنَة ذهب، ولا تَعَب فيها، كلا ولا نصب، وإن سألت عن ترابها، فالمسك الأذفر[1].

وإن سألت عن حصبائها، فاللؤلؤ والجوهر.

ـ وإن سألت عن أنهارها، فأنهارٌ من لبن، وأنهارٌ من عسل، ونهر الكوثر[2].

ـ وإن سألت عن قصورها، فالقصر من لؤلؤة مجوفة، طولها سبعون ميلاً في الهواء، أو من زمردة خضراء، باهرة السنا، أو ياقوتة حمراء عالية البناء، وللمؤمن في كل زاوية من زواياها أهل وخدم، لا يبصر بعضهم بعضاً لسعة الفنا[3].

---

(1) المسك الأذفر: هو أجود أنواع الطيب عند العرب، فوَّاح الرائحة.

(2) يشير إلى قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: 15]، ويشير أيضاً إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: 1]، وفي «صحيح البخاري» (4964) وغيره من حديث أنس ﷺ قال: لما عُرِجَ بالنَّبيِّ ﷺ إلى السماء، قال: «أَتَيْتُ على نهرٍ حافتاهُ قباب اللؤلؤ مُجوَّفٌ. فقُلتُ: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر».

(3) يشير إلى الحديث الذي رواه البخاري (4879) ومسلم (2838) وغيرهما من حديث عبد الله بن قيس ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة خيمةً من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلاً في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمنون».

وإن سألت عن فروشها فمن إستبرق بطائنها، فما ظنك بظهائرها؟

وهي مرفوعة بين الفراشين أربعين سنة، وليس عليها نوم ولا سِنَة، [أي: نُعاس] بل هم عليها متكئون مقبلون: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الطور: 25].

وإن سألت عن أكلها، فموائدها موضوعة، وأكلها على الدوام، وثمارها لا ممنوعة ولا مقطوعة لطول المقام، بل (فاكهة) نضيجة، ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الواقعة: 20، 21] ويسقون فيها: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: 25، 26].

لا يتغوط أهلها، ولا يبولون، ولا يبصقون، ولا يمتخطون، أكلهم يرشح من جلودهم كالمسك ريحاً، ولوناً كالجمان، فإذا البطن قد ضمر، كما كان[1].

وإن سألت عن خدمها، فالولدان المخلدون: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان: 19 ـ 22].

وبالجملة فكل ما ذكرت لك، هو كما جاء في الخبر، وإلا ففي الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر[2].

---

(1) يشير إلى الحديث الذي رواه أحمد (14408) ومسلم (2835) وغيرهما، من حديث جابر ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ. وَلَا يَتْفِلُونَ وَلَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ». قَالُوا: فَمَا بَالُ الطَّعَامِ؟ قَالَ: «جُشَاءٌ وَرَشْحٌ كَرَشْحِ الْمِسْكِ يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ، كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفَسَ». لفظ مسلم.
ويشير أيضاً إلى ما رواه البخاري (٣٣٢٧) ومسلم (٢٨٣٤) وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ، صُوَرُهُمْ عَلَىٰ صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ. لَا يَبْصُقُونَ فِيهَا وَلَا يَمْتَخِطُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ فِيهَا. آنِيَتُهُمْ وَأَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ. وَمَجَامِرُهُمْ مِنَ الأَلُوَّةِ. وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ. وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ. يُرَىٰ مُخُّ سَاقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ. مِنَ الْحُسْنِ. لا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ. قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ. يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا». لفظ مسلم.

(2) يشير إلى ما رواه البخاري (4779) ومسلم (2824) وغيرهما، من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تبارك وتعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سمعتْ ولا خطر على قلب بشر» قال أبو هريرة؛ اقرؤُوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: 17]. لفظ البخاري.

وإن سألت عن مدة بقائهم في هذا النعيم العظيم، والمقام الكريم الجسيم، فهم أبداً فيه خالدون، أحياء لا يموتون، شباب لا يهرمون، أصحاء لا يسقمون، فرحون لا يحزنون، راضون لا يسخطون، من خوف القطيعة والطرد أبداً آمنين[1]. في مقام أمين: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس: 10] فقس بعقلك ما بين هذا الملك العظيم الخطير وبين قصرك ذي العمر القصير، والقدر اليسير، وانظر إذا فارقته بالشهادة إلى ماذا تصير، إن المقام فيما أنت فيه لغرور، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: 14].

وإن قلت أرغب في التأخير لإصلاح العمل، فهذا أيضاً ناتج من الغرور، وطول الأمل، وتالله ما تمَّ تأخير في الأجل المقدور: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: 5، 6].

ليس هذا والله إلا من مصايد إبليس اللعين، لا من مقاصد الأولياء والصالحين، أليس الصحابة وأخيار التابعين، أولى منك بهذا القصد إن كنت من الصادقين، لو ركنوا إلى تأخير الآجال، لما ارتكبوا في الله عظيم الأهوال ولما جاهدوا المشركين والكفار، واقتحموا البلاد والأمصار، ألا تُصغي بأذنك يا هذا المفتون، إلى قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 41]. ألا تلقي بالك؟ إن كنت فطيناً فهيماً، وتفكر في قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 95].

أيها المغرور، وإن نوم المجاهد أفضل من قيام الليل، وصيام الدهور.

وهب أنك صادق فيما تقول، أليس عملك متردداً بين الردِّ والقَبول؟ أليس أمامك ما يفزع ويهول، أليس قدامك يوم الحشر المهول؟ ولا والله تدري هل ينجيك عملك، إن عملت أو يرديك.

---

(1) يشير إلى ما رواه الإمام أحمد (11905) ومسلم (2837) وغيرهما من حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَداً. وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَداً. وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَداً. وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبداً» فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 43].

﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: 25]، ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [آل عمران: 158].

وإن قلت: لا تطيب نفسي بفراق زوجتي وجمالها، وأنسي بقربها، وسروري بوصالها، فهب أن زوجتك أحسن النسوان، وأجمل أهل الزمان، أليس أولها نطفة مذرة[1] وآخرها جيفة قذرة، وهي فيما بين ذلك تحمل العذرة، حيضها يمنعك شطر عمرها.

وعقوقها لك أكثر من برها، إن لم تكتحل تعمَّشَت عينها، وإن لم تتزين ظهر شَيْنُها، وإن لم تمتشط شعثت شعورها، وإن لم تدّهن طفى نورها، وإن لم تطيب تفلت، وإن لم تتطهر نتنت.

كثيرة العلل، سريعة الملل، إن كبرت أيست، وإن عجزت[2] هرمت، تحسن إليها جهدك، فتنكر ذلك عند السخط.

ـ كما قال ﷺ: «**لو أحسنت إلى إحداهنَّ الدهر ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط**»[3].

تروم منها أقذر ما فيها، وتخاف هجرها، وتخشى تجافيها يحملك حبها على الكد والتعب، والشقاء الشديد والنصب، توردك الموارد المهلكة، وترضى في أدنى هواها بهلاكك وما أوشكه.

تودك لمرادها منك فإن فات أعرضت عنك، وهجرتك وطلبت سواك، وملَّتك وأظهرت قلاك[4]، وقالت بلسان حالها، إن لم تفصح بمقالها، واصلني وأنفق، أو فارقني وطلق، وبالجملة لا يمكن أن تستمتع بها إلا على عِوَج، ولا تدوم صحبتك إياها إلا مع ضيق وحرج.

ياالله العجب، كي يقعدك حب هذه، عن وصل من خُلِقَتْ من النور، ونشأت في

---

(1) نطفة مذرة: أي فاسدة.

(2) عَجَزَت المرأة تعجُز بالضم أي: صارت عَجوزاً، وعجزت بالكسر تَعْجَز عَجَزاً وعُجْزاً بالضم عظمت عجيزتها «الصحاح» (3/ 884).

(3) الحديث بتمامه رواه البخاري (29) ومسلم (907) وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بأتم منه.

(4) القلى: البغضاء.

ظلال القصور، مع الولدان والحور، في دار النعيم والسرور، والله لا يجفُّ دم الشهيد حتى تلقاه، وتستمتع بشهود نورها عيناه، حوراء عيناء، جميلة حسناء، بِكْر عذراء، كأنَّها الياقوت، لم يطمثها إنس قبلك ولا جان.

كلامها رخيم، وقدُّها قويم، وشعرُها بهيم وقدرُها عظيم، جفنها فاتر، وحسنها باهر، وجمالها زاهر، ودلالها ظاهر، كحيل طرفها، جميل ظرفها، عذب نطقها، عجب خَلْقُها، حسن خُلُقُها، زاهية الحلى، بهية الحلل، كثيرة الوداد، عديمة الملل، قد قصرت طرفها عليك، فلم تنظر سواك، وتحببت إليك، بكل ما وافق هواك.

لو برز ظفرها لطمس بدر التمام، ولو ظهر سوارها ليلاً، لم يبق في الكون ظلام، ولو بدا معصمها لسبى كل الأنام، ولو اطلعت بين السماء والأرض، لملأ ريحها ما بينهما، ولو تفلت في البحر المالح، عاد كأعذب الماء.

كلما نظرت إليها ازدادت في عينك حسناً، وكلما جالستها زادت إلى ذلك الحسن حسناً، أيجمل بعاقل أن يسمع بهذه ويقعد عن وصالها، كيف وله في الجنة من الحور العين أمثال أمثالها؟

واعلم أن فراق زوجتك تلك لا بد منه، وكأن قد وقع، والجنة إن شاء الله تجمع بينكما ونعم المجتمع، وما بينك وبين وصلها إن كانت من الصالحات، إلا وقت لا بد من فراقك لها فيه وهو الممات، فتجدها في الآخرة أجمل من الحور العين بما لا يعلمه إلا رب العالمين، قد ذهب ما تكره منها، وزال ما يسوء عنها، وحسن خُلُقُها، وكمل خَلْقُها.

كحلاء نجلاء، حسناء زهراء، بِكراً، عذراء، قد طهرت من الحيض والنفاس، وكرمت منها الأنواع والأجناس، وزال اعوجاجها، وزاد ابتهاجها، وعظمت أنوارها، وجلَّ مقدارها، وفضلت على الحور العين في الجمال، والأنوار، كفضلهن عليها في هذه الدار، فأعرض عنها اليوم للَّه فسيعوضك الله عنها، وإن كانت من أهل الجنة فلا بد لك منها.

ولا يلهينك يا هذا عن دار القرار، الاغترار بشيء من زخرف هذه الدار، فوالله ما هي بدار مقام، ولا محل اجتماع والتئام، دار إنْ أضحكت اليوم أبكت غداً، وإن سَرَّت أعقب سرورها الردى، وإن جلَّت فيها النعم جميعاً، حلَّت فيها النقم سريعاً، إن أخصبت أجدبت، وإن جمعت فرّقت، وإن ضمت شتّتت، وإن نقصت تغصت، وإن

أغنت عنت[1]، وإن زادت أبادت، وإن عَمَّرت دَمَّرت، وإن أسفرت أدبرت، وإن راقت أراقت، وإن صافت حافت[2]، وإن عمَّت بنوالها غمَّت بوبالها، وإن جادت بوصالها جاءت بفصالها.

قربها بعيد، وحبيبها طريد، شرابها سراب، وَعَذْبُها عذاب، دار الهموم والأحزان، والغموم والأشجان، والبين والفراق، والشقاء والشقاق، والوصب[3] والنصب، والمشقة والتعب، كثيرها قليل، وعزيزها ذليل، وغنيها فقير، وجليلها حقير، غزيرة الآفات، كثيرة الحسرات، قليلة الصفا، عديمة الوفا.

لا ثقة بعهودها، ولا وفت لوعودها، محبها تعبان، وعاشقها ولهان[4]، والواثق بها خجلان، قد سترت معايبها، وكتمت مصائبها، وأخفت نوائبها[5] وخدعت بأباطيلها، وغرت ببراطيلها، ونصبت شباكها، ووضعت أشراكها، وبهرجت[6] زيفها، وجردت سيفها، وأبدت ملامحها، وسترت قبائحها، ونادت الوصال الوصال أيها الرجال، فمن رام وصالها، وقع في حبالها، وبدا له سوء حالها، وعظم نكالها، ووقع في أسرها، لجهله بشرها، وحاق به مكرها، حيث لم يتبصر في أمرها فعضَّ يديه ندماً، وبكى بعد الدمع دماً، وأسلمه ما طلب، إلى سوء المنقلب، وجهد في الفرار فما أمكنه الهرب.

فتيقظ لنفسك يا هذا قبل الهلاك. وأطلق نفسك من أسرها قبل أن يعسر الفكاك وانهض على قدم التوفيق والسعادة، عسى الله أن يرزقك من فضله الشهادة، ولا يقعدك عن هذا الثواب، سبب من الأسباب، فذو الحزم[7] السديد، من جَرَّد العزم الشديد، وذو الرأي المصيب من كان له في الجهاد نصيب.

ومن أخلد[8] إلى الكسل، وغرَّه الأمل، زَلَّت منه القدم، وندم حيث لا يغني الندم،

---

(1) عناه: كلفه ما يشق عليه. المعجم الوسيط (2/ 639).
(2) أي: جارت وظلمت «الصحاح» (4/ 1347).
(3) الوصب: المرض. «الصحاح» (1/ 223).
(4) الوله: ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد. «الصحاح»: (6/ 2256).
(5) النوائب جمع نائبة وهي المصيبة. «الصحاح» (1/ 229).
(6) بهرج الشيء: أباحه.
(7) الحزم: ضبط الأمر.
(8) أخلد: أي ركن واطمأن.

وَقَرَعَ السنَّ على ما فرط وفات، إذا شاهد الشهداء في أعلى الغرفات: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: 4] ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173].

خاتمـــة ـ في مصير المتخلف عن الجهاد طواعية:

قال الله العظيم: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [التوبة: 81 ـ 84].

قال ابن النحّاس: فانظر رحمك الله إلى هذا الوعيد الشديد والخزي العظيم والوبال الأليم لمن تخلف عن الجهاد وتقاعد عنه وكره الإنفاق فيه وهذه الآيات وإن كانت نزلت أقوام بأعيانهم فإنَّ فيها ترهيباً وتهديداً لمن فعل كفعلهم وتخلف عن الجهاد الواجب كتخلفهم وناهيك في ذلك فعلاً شنيعاً ووعيداً فظيعاً ولا حول ولا قوة إلا بالله.